

محمد سبيلا\*

## مسألة الحدائثة في فكر هايدغر: بين تمجيد العالم الحديث وراثته

يميز تشخيص مارتن هايدغر الفلسفي للحدائثة ضمناً بين مظاهر الحدائثة أو تجلياتها وبين جوهرها الفكري؛ ذلك أن الحدائثة في الأزمنة المعاصرة تتخذ في نظره مجموعة من المظاهر، أهمها ستة مظاهر تطاول مستويات اجتماعية مختلفة:

- العلم كمعرفة موضوعية وموضوعة للظواهر، معبر عنها ضمن علاقات رياضية خاضعة لروح التقنية وإملاءاتها ومتطلباتها.

- التقنية من حيث هي استفسار وتحريض للطبيعة لكشف مخزوناتا وطاقاتها وقواها الكامنة، وبشكل غير مباشر تحويل هذه التقنية كمجموعة قوى وقدرات متولدة عن ترويض الطبيعة والسيطرة عليها إلى أدوات لخدمة السيطرة على الإنسان والتحكم في المجالات والأنشطة الإنسانية.

- تحول الفن إلى تجربة جمالية إنسانية معيشة، معيارها الذوق الذاتي.

- النظر إلى الأنشطة الإنسانية من حيث هي تعبير عن فعالية الإنسان ضمن التأويل الثقافي للحضارة.

- الانسلاخ عن المقدسات ونزع الطابع القدسي عن المقدس (Dedivinition, entgöterung)<sup>(1)</sup>

- تشكُّل مدلول جديد للحرية.

\* أستاذ الفلسفة من المغرب.

(1) Martin Heidegger, «L'époque des conceptions du monde», dans: Martin Heidegger, *Chemins qui ne mènent nulle part "Holzwege"*, traduit de l'allemand par Wolfgang Brokmeier; édité par François Fédier (Paris: Gallimard, 1962), pp. 99-125. مصطلح Entgöterung الهايدغري قريب دلاليًا من مصطلح ماكس فيبر إن لم يكن النسخة الهايدغرية منه، وقد تُرجم أخيرًا إلى الفرنسية بلفظ Demagification أو Desacralisation بعد أن كان قد تُرجم في العقود السابقة بمصطلح Desenchantment. بصدد العلاقة بين هايدغر وفيبر، انظر مادة Weber في: Philippe Arjakovsky, François Fédier et Hadrien France-Lanord, dirs., *Le Dictionnaire Martin Heidegger* (Paris: Cerf, 2013), pp. 1373-1377.

هياها الهايدغري الفرنسي الوفي فرانسوا فيدييه (F. Fedier).

من بين أهم مظاهر الحداثة عند هايدغر مقولة الحرية، وهي مقولة مرتبطة عضوياً بالذات الفاعلة (Subject) الحرة والمتمثلة والمريدة والواعية. إن الحرية في منظوره مرتبطة بانتصاب الذات الإنسانية كقوام، وعماد، ومركز، وقيمة مرجعية في الفكر العربي الحديث.

يقدم هايدغر الحرية كفعل تحرر مستمر من هيمنة الكنيسة يدعوه الحرية الجديدة، وهي الحرية التي أصبحت الإنسانية بواسطتها متحررة من اليقين والخلاص الكنسي، ومعتمدة على يقينها الذاتي وعبر انهماها الذاتي بمصيرها من دون وصاية.

هذه الحرية التي يتحدث عنها هايدغر - ويدعوها الحرية الجديدة - أوسع وأشمل من التصور التقليدي للحرية. وهي ذات أبعاد ثلاثة: تحرر من النظام الغيبي ومن عقيدة الكنيسة المسيحية؛ تحرر من الخضوع والامتثال الكامل والشامل للطبيعة؛ تحرر الفرد من الانصهار الكلي في الجماعة وبناء استقلاليته الذاتية التي تستمد معاييرها من ذاتها<sup>(٢)</sup>.

خلف السمات المختلفة للحداثة عند هايدغر أساس مشترك وجامع لها كلها. فهناك العلم - التقنية - الفن - الدين - الثقافة التي تنتصب خلفها الذات الإنسانية كأساس ومبدأ ومرجع. وخلف العلم الحديث تنتصب الذات الإنسانية كذات حاسبة وكأساس لكل تمثل؛ فالعلم الحديث من حيث هو معلم أساسي للعصور الحديثة، ومن حيث هو بحث ومنهج وطريقة خاصة في التعامل مع الموضوعات، يقوم على إسقاط تصورات وخطط محددة على ظواهر الطبيعة واستحضارها أمام الذات وإخضاعها لمقاييس وحسابات العقل.

في مجال الدين يأخذ الإنسان المبادرة ليحصل على الخلاص انطلاقاً من ذاته واعتماداً على قدراته الذاتية، مؤسساً اليقين والأمان على وجوده الإنساني ذاته، ويصنع معنى جديداً للحرية يقوم على تحرير (Befreiung) الكائن الإنساني اعتماداً على ذاته.

في المجالات كلها، يصبح الإنسان أساس التاريخ وأساس الحقيقة والقانون والأخلاق... لدرجة أن هايدغر يعتبر الحداثة برمتها فترة أو عصر الذاتية الإنسانية، وأن تجليات الحداثة ومظاهرها المختلفة هي نتائج أو متلاحقات متتالية لهذه العملية الأساسية المتمثلة في تنصّب الإنسان ذاتاً مؤسّسة فاعلة (Sujet) أو في تنصّبه سيّداً.

الوجه الآخر لعملية انتصاب الذات الإنسانية أساساً ومرجعاً وقيمة عليا هو إمكان أن يصبح العالم صورة مدرّكة أو متصورة، أي إمكان تكوّن صورة كونية شمولية عن العالم. وتلك من مصادر الترابط بين العلم والتقنية من جهة والميتافيزيقا من جهة أخرى، أو التوازي بين ماهية التقنية الحديثة وماهية الميتافيزيقا، وكأن إحداها وجه للآخرى. وعناصر الحداثة في منظور هايدغر عناصر مترابطة، فهي عبارة عن تشكيلة فكرية سمّتها الأساسية أن كينونة الكائن في هذا العصر أو في هذه التشكيلة الفكرية تستمد من الذاتية. لهذه التشكيلة جذور بعيدة في تاريخ الفكر، لكنها تبلورت بجلاء بين ديكرات (الذات كعقل) ونيشه (الذات كإرادة) من خلال جملة سمات أهمها أولوية العنصر الرياضي في معرفة

(٢) انظر: محمد الشيخ، نقد الحداثة في فكر هايدغر (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٠٨)، ص ٥٠٥-٥١٣ و ٥٥٥-٥٦١؛ Martin Heidegger, *De l'essence de la liberté humaine* (Paris: Gallimard, 2001), pp. 11-23 et 274-278, et Philippe Arjakovsky, François Fédiér et Hadrien France-Lanord, dirs., *Le Dictionnaire Martin Heidegger* (Paris: Cerf, 2013), pp. 767-772.

تتوجه أكثر وتعتمد أكثر على ذاتها وتقييم أو تستقي الحقيقة من اليقين الذاتي الذي ينصب نفسه كمحكمة عليا فاصلة في التاريخ تحسم في ما هو موجود وفي ما هو حقيقي، قاطعة الصلة مع سلطة الكنيسة ومرجعية الإيمان في اتجاه تأسيس الذات بذاتها، واعتبار المعرفة والفعل طرائق خلاص للإنسان الذي يتصور نفسه ذاتاً فاعلة حرة مريدة وخلاقة بحيث يصبح جهاز الدولة تعبيراً عن إرادة سائدة، والمتنوج الفني إبداعاً حراً للعبقرية الإنسانية<sup>(3)</sup>.

المتافيزيقا تصوغ العلاقة مع الواقع وتحدد كيفية الوجود في العالم في كل فترة من فترات التاريخ. ومن ثمة، فإن فهم عصر من عصور التاريخ يتطلب أولاً فهم حقيقة الكينونة ومعناها الذي يسوده ويوجهه. ولنقل إن هذه الرؤية تندرج في مسمى التفسير الميتافيزيقي للتاريخ، وهي رؤية يدرجها هابرماس ضمن دائرة «المنظور المثالي»<sup>(4)</sup>.

إن تشخيص هايدغر للحداثة هو تشخيص كلي وشمولي لمكوناتها وسماتها ولأسسها وخلفياتها الفكرية العميقة والبعيدة، كما إنه تشخيص متعدد الأضلاع: وصفى وأركيولوجي وتقييمي وتحذيري<sup>(5)</sup>، وهذا ما يسم هذا التشخيص بقدر من الإبهام يصعب التخلص منه؛ إذ يوحى من حيث دقته ومن حيث تعمقه في تشریح أسس الفكرية العميقة للحداثة ولبنيتها وكأنه لسان حالها ورائد من روادها، لكنه في الوقت نفسه، وفي لمحة سحرية، يوجه إلى الحداثة أقذع الصفات والسمات، في مراوحة رقيقة بين التشخيص والتبخيس. في لمحة طريفة يُجمل محمد الشيخ لائحة مذمات الحداثة في نظر هايدغر، حيث يقول:

لقد ذم (هايدغر) الأذان الحديثة وطريقة أفهام المحدثين، كما ذم جمهور المحدثين. وحتى عندما ينسب نفسه إلى المحدثين، فهو يقول إننا نحن المحدثين أفقدنا اللغة ذاكرتها وأفقرناها غناها، وإننا نحن المحدثين تنهنا إذ نقلنا أنظار الأولين أفسد النقول، وشق علينا أن نزاوج بين تعلم معنى أن نفكر وأن نتخلص في الوقت ذاته من سابق الفكر وأردئه، وإننا استغرقنا عادي الأمر واستهلكنا مألوف الشأن، وإننا لم نر الكلام إلا واحد المعاني، ولم يعد يتحصل لنا من فهم الطبيعة إلا الفهم الفولكلوري، وإن أفهامنا تقاصرت عن رعاية الكينونة في خفائها وجلائها وحفظ سرها.

وفي مواقع أخرى يتحدث عن فكر الحداثة باعتباره فكر مخيلة وإعجاب بالنفس وغرور، وفكر تناسخ، وفكر تأيين (من حيث هو فكر يدفعه خيلاؤه إلى حد إعلان موت أفلاطون)، وفكر بدهة يفتقد الدهشة والاستفسار عن لغز الكينونة وسرها.

يسم هايدغر الحداثة بمجموعة صفات وتسميات، بعضها شبه محايد، كالحديث عن العصر التقني والعصر الذري والعصر الصناعي وعصر الموضوعية وعصر السيرنيتيكا، وبعضها الآخر لا يخلو من نقد سلبي وقدح. فالعصر الحديث هو عصر غياب المقدس وعصر العمومية (publicité)، وسيادة الغمر (on) أو ما يدعوه هايدغر في الوجود والزمن دكتاتورية الجموع الغفل (الفقرة ٢٧)، وعصر الغياب الكامل للمعنى، وانفقاد الوجهة والغاية والقصد، وسيادة ما هو عبثي (Absurde). عصر المحنة والعناء،

(3) Jean-Marie Vaysse, *Dictionnaire Heidegger*, dictionnaire (Paris: Ellipses, 2007), pp. 172-173.

(4) Jürgen Habermas, *Le Discours philosophique de la modernité: Douze conférences*, trad. de l'allemand par Christian Bouchindhomme et Rainer Rochlitz, bibliothèque de philosophie (Paris: Gallimard, 1985), p. 158.

(5) انظر: الشيخ، نقد الحداثة.

عصر العوز والفقر، عصر الشدة والخصاصة، أو كما كان يقول شبنغلر: عصر الانحطاط لا عصر التقدم، عصر طوفان العدمية - عصر التفاهة والمجانسة والتيه والاستنزاف.

فميل الإنسان إلى الترويح عن نفسه وإلى اللهو وتزجية الوقت في الحفلات الفنية والمباريات الرياضية، وتطلعه إلى المعلومات والأخبار والأحداث الجديدة، وتسقطه للأحداث وتمافته عليها، كل ذلك انتقادات متعددة متناثرة للحدثة في كتابات هايدغر<sup>(٦)</sup>. وسنحاول هنا أن نقدم مجرداً أو لوحة شبه استيفائية بهذه الانتقادات، وبمصطلحات هايدغرية قدر الإمكان:

- الانحطاط الروحي للأرض.

- افتقاد آخر قوة روحية.

- انظلام أو استظلام العالم.

Assombrissement }  
Entenebrement } du monde

Weltverdüsterung }  
Verzau berung } بالألمانية

- فرار واختفاء الآلهة وتحول المقدس المتعالى إلى «مقدس» متداني (تمثله الأيديولوجيات، الزعماء، الأبطال، النجوم).

- تخريب الأرض (Verstörung - Erdzerstörung).

- تقطعن أو تغوغو الإنسان (Gregarisation de l'homme) وسيادة المبني للمجهول أو العُفل.

- سيادة الرداءة والردىء والهائل (مقابل انسحاب الجليل)<sup>(٧)</sup>، والتشكك الحاقد تجاه كل ما هو خلاق ومبدع وحر<sup>(٨)</sup>.

- تحوّل الإنسان إلى «بهيمة شغل» (bête de travail - Arbeitstier) وإلى مجرد «موظف لدى التقنية»، حيث أصبح الناس مجرد «موارد بشرية» و«رأس مال ثمين» وأكثر «المواد الأولية» أهمية.

- تحوّل التقنية إلى جهاز تقني شامل (قشتال Gestalt) مسيطر يتحكم في كل مناحي حياة الإنسان؛ فالتقنية، بفعل اكتسابها للعلم الكلي (omniscience) وللقدرة الكلية (omnipotence) تغدو بديلاً من القدرة المطلقة المتعالية من حيث تحكمها في الطبيعة والتاريخ والإنسان، وتحويلها العالم إلى عالم مفصول

(٦) انظر: الشيخ، نقد الحدثة؛ محمد أندلسي، أفول المتعالى وأزمة الميتافيزيقا الغربية (هايدغر من خلال نيته) (قيد الطبع)، Gérard Guest, «Nihilisme», dans: Arjakovsky, Fédier et France-Lanord, dirs., p. 904.

(٧) انظر الدراسة المتميزة: اسماعيل مهنا، الوجود والحدثة: هايدغر في مناظرة العقل الحديث (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون؛ الرباط: منشورات الاختلاف، ٢٠١٢).

(٨) Martin Heidegger, *Introduction à la métaphysique* ([Paris]: Gallimard, [s. d.]), pp. 47-48.

عن الغايات (Monde définalisé)، حيث «تتم موضعة الطبيعة، والإبقاء على الثقافة في حالة حركة، وتوجيه السياسة، وشحن المثل»، وهو ما يعني انقلاب العلاقة بين الإنسان والطبيعة. فالتقنية أصبحت هي التي تسيطر على الإنسان وتحكمه وتوجهه، على الرغم مما يبدو في الظاهر من أن الإنسان هو سيد التقنية والمتحكم فيها.

- تحوّل الطبيعة إلى مجرد موضوعات ومواد قابلة للاستهلاك والاستهلاك والاستخزان.

- إضفاء طابع أداتي (Instrumental) على المعرفة وعلى العمل، وهيمنة المنطق أو العقل الأداتي.

- مجانسة مظاهر الواقع الاجتماعي ومظاهر الحياة وتوحيدها (Gleichförmigkeit (uniformisation).

- اجتثاث الإنسان من طبيعته وخارج موطنه الكينوني (Entwurzelung Entmenschlichung).

- استشراء العدمية الشاملة التي هي أكثر المدعويين إقلاقاً. وقد كانت العدمية عند نيتشه تعني الحركة التي تفقد بواسطتها كل القيم قيمتها عبر انقشاع الأوهام الميتافيزيقية بشأن التعالي والغائية والكلية والحقيقة، بينما تعني العدمية لدى هايدغر الانهزام فقط بالكائن عبر تناس كل الكينونة (Seinsvergessenheit) بما يصاحبه من تيه (Irre).

- الانهيار الكامل بالتدبير التكنوقراطي للكائن، والتغافل عن الاختلاف أو الفرق الأنطولوجي بين الكينونة والكائن.

- انجرار الأرض كلها في منطق القوة الذي هو المنطق الأساسي للعصور الحديثة، مع ما تلاه من حروب «عالمية» متلاحقة، وأنظمة سياسية استبدادية، وأيديولوجيات شمولية لا فرق فيها بين الشيوعية السوفياتية والليبرالية الفردانية الأميركية لأن لها الجذر نفسه والأساس الميتافيزيقي نفسه.

- الانجذاب الجنوني للإنسان الحديث نحو كل ما هو جديد، حيث إن إنسان الأزمنة الحديثة لا يرى ولا يعيش إلا ضمن طوفان الأشياء والأشياء الجديدة لدرجة أن كل شيء من الأشياء منذور إلى أن يُهمَل ويتلاشى «وتنتهي صلاحيته» سريعاً بعيد إنتاجه واستعماله أو «استهلاكه». بل إن الحداثة ذاتها تستمد تسميتها (من خلال هوس الجدة) كأزمة جديدة (die Neuzeit).

- تحوّل كل العمليات الاجتماعية إلى عمليات مكننة واستخدام وتسخير عملي (machenschaft).

- استنفاد الكائن واستنساكه (vernutzung des seinden)<sup>(٩)</sup>.

يبدو أن موقف هايدغر من التقنية والحداثة دقيق جداً ويتراوح بين لا ونعم، بين المثالب والمناقب، فهو يحرص على القول إنه ليس ضد التقنية (بل إنه يمتدح مفعولاتها السحرية، كما يذكر لوفريه بصدد عملية الضغط على الزر ليتدفق الضوء)، بل إن نقده ينصب فقط على علاقتنا بالتقنية وعلى خلفياتها الميتافيزيقية.

(٩) انظر: La: Guest, «Nihilisme», pp. 899-906, et Martin Heidegger: *Introduction à la métaphysique*, pp. 47-48, et «La: Question de la technique», pp. 9-48, «Science et méditation», pp. 49-79 et «Dépassement de la métaphysique», pp. 80-115, dans: *Essais et conférences «Vorträge und Aufsätze»*, Traduit de l'allemand par André Préau; préfacé par Jean Beaufret (Paris: Gallimard, 1958).

الحدائثة في وجهها التقني الأبرز هي، بحسب هايدغر، تجسيد للسيطرة الذاتية الإنسانية واستئساد العقل الحاسب على حساب العقل المتأمل، في حين أن الكينونة عصبية على العقل الحاسب ولا يمكن إدراكها عن طريق التصور والتمثل والفهم، بل ربما فقط عن طريق الإيحاءات والإيجاءات التي تبعث بها أو تنبعث منها عبر التجلي المتنوع للكائنات<sup>(١١)</sup>. بل إن هايدغر في مرحلته الفكرية الأخيرة يكاد يسجل نوعاً من الاقتران بين الغيبة الإلهية وزمن الهيمنة الشاملة والمطبقة للتقنية. وهذا الاقتران ليس عرضياً، بل هو أقرب ما يكون إلى الاقتران التلازمي، وربما السببي؛ فاختفاء المقدس - الذي هو الوسيط بين الكينونة والألوهة - وغياب الآلهة (أو هروب الآلهة، بالتعبير الرمزي للشاعر الألماني هلدلين) هو «نتيجة» استسلام العالم للتقنية وخضوعه الشامل لمنظوراتها ومقتضياتها، بما في ذلك مقتضيات الحرب الشاملة<sup>(١٢)</sup>. فالله غائب لأن حضوره في الكون والوجود والتاريخ لا يستقيم إلا إذا سلمت الكينونة من سطوة العقل الحاسب وطغيان الآلة التقنية المشوهة<sup>(١٣)</sup>.

ويرى هايدغر أن أزمة العالم الحديث هي من العمق والتشابك والرسوخ بحيث تعجز عن معالجتها أي خطة بشرية إنقاذية؛ «فإله وحده فقط بإمكانه وبمكنته أن ينقذنا (انظر استجوابه مع مجلة دير شبيغل *Der Spiegel* الألمانية في ٣١ أيار/ مايو ١٩٧٦).

هذا النقد الشامل والجزري للحدائثة ولأسسها الفكرية هو جزء أساسي من فلسفة هايدغر التي هي أكبر محاولة لتفكيك الأسس والمرتكزات الفكرية الأساسية للتاريخ الغربي، عبر الكشف عن الحركة العميقة في التراث (أو التقليد) الغربي، والمتمثلة في محاولة الذاتية الإنسانية إخضاع الواقع والسيطرة عليه في كليته: عقل الأنوار، القيم الديمقراطية، الكونية الأخلاقية، العلوم والتقنيات، النزعة الإنسانية الحديثة، تشكل دولة القانون والنظام القضائي والحقوق؛ وتلك كلها تشكل الآليات الأساسية في الحدائثة أو الأزمنة الحديثة. وهي في نظره تعبير وعرض أساسي للعدمية التي أداها نيتشه، وبذلك يتخذ فكر هايدغر صبغة تأمل (نقدي - إضافة) في ماهية العصور الحديثة<sup>(١٣)</sup>.

كانت فلسفة هيغل انتشاء بالوجه الإيجابي لظفر العقل وببشائر التقدم والآفاق الواعدة، في حين أن فلسفة نيتشه هي مساءلة نقدية للعقل وللحدائثة (العلوم - الفنون - السياسة) ونقد للثورة الفرنسية (التي هي بالنسبة إليه مزحة أو هزء تاريخي كارثي *Farce sinistre*) والشكل الحديث لثورة العبيد<sup>(١٤)</sup>. ولعل فلسفة هايدغر تعكس مراجعة نقدية للحدائثة الغربية عبر نقد هيمنة العقل التكنولوجي التي تنفلت من هيمنتها أبعاد المتعالي والسر والشعري، والمقدس، والإلهي، والتشكيك في الرهان الخلاصي للعقل وفي مقولة التقدم والتحرر... والأنوار (مقابل «ليل العالم»).

(١٠) مشير باسيل عون، «الغبية الإلهية في فكر مارتن هايدغر»، تبين، السنة ٢، العدد ٨ (ربيع ٢٠١٤)، ص ٤١-٤٢. في هذا السياق يمكن الرجوع إلى الترجمات والشروح والتحليلات التي يقدمها Girard Guest في *Seminaire* Paroles des jours: Gérard Guest, «Seminaire de Gérard Guest», on the web: <<http://parolesdesjours.free.fr>>

(١١) هنا يجب أن نشير إلى أن الفترة التي حرر فيها هايدغر مجموعة من الكتب المدفونة، وخاصة *Beitrag* أو *الحدوث* و *Bisimunguen* أو *المساهمات* بين سنتي ١٩٣٦ و ١٩٤٠ كانت ذروة الحرب العالمية الثانية، لا بطايراتها وقنابلها وغواصاتها وجنودها والدمار الشامل الذي أحدثته فحسب، بل أيضاً بالجو المشحون، جو الرعب والدمار الذي ساد أوروبا في هذه الفترة.

(١٢) عون، ص ٤١-٤٦.

(13) Etienne Ganty, *Penser la modernité: Essai sur Heidegger, Habermas et Eric Weil* (Namur: Presses Universitaires de Namur, 1997), p. 21.

(١٤) انظر: L. Kelkel, «Ontologie et décadence de Hegel à Heidegger», dans: *Décadence et apocalypse: Séminaires de* (١٤) انظر: *l'année 1985-1986* (Dijon: Université de Bourgogne, Faculté de Lettres et philosophie, 1986).



بهذا المعنى تُعتبر فلسفة هايدغر امتداداً لفكر نيتشه وتعميقاً له في نقد الحداثة الغربية؛ فقد سبق لنيته أن وجّه نقداً جذرياً شاملاً إلى الحداثة، حيث انتقد الدولة الحديثة (المسخ البارد)، وانتقد الديمقراطية الحديثة باعتبارها انتصاراً للغوغاء والمستضعفين، وانتقد الثورة الفرنسية والمجتمع البرجوازي، وانتقد عدمية التقنية الحديثة وتسخير العقل الحديث في خدمة سلطة المال، وانتقد الاشتراكية باعتبارها تعبيراً عن حسد اجتماعي، وانتقد فكرة التقدم ومفاهيم الوعي والعقل والذات، كاشفاً عن الأسس الميتافيزيقية التي رست عليها الحداثة، والمتمثلة في إرادة القوة والقدرة، وهو ما جعل فلسفته أغنى منجم فكري لنقد الحداثة وأكبر مورد لما بعد الحداثة<sup>(١٥)</sup>.

كان نقد الحداثة قد اتخذ في الفكر الغربي أشكالاً متعددة؛ فالحياة الاجتماعية الحديثة قائمة على استغلال رأس المال للعمل بحسب ماركس، وهي عند جورج لوكاتش «حياة مشيئة»، وعند رواد مدرسة فرانكفورت «حياة مداراة ومتحكّم فيها»، وعند ماركوز حياة «أحادية البعد»، وعند إرنست يونغر حياة خاضعة «للتعبئة الشاملة» للواقع الإنساني في خدمة التقنية، وعند السوسيولوجي الألماني سيميل (Simmel) حياة تسودها الروح الحيسوبية، وعند والتر بنجيمان حياة تفتقد الهالة وتتميز بكتلتها الفن وسريان الصناعات الثقافية وروح التبضيع...

يمكن إجمال الانتقادات الموجهة إلى الحداثة من طرف الاتجاهات الدينية المحافظة والرومانسية والثقافة التشاؤمية (kulturkritiker)، وحتى من طرف بعض الاتجاهات الماركسية، في عناصر عدة: المكننة؛ التشيؤ والاستلاب؛ الفردانية والنزعة النسبية؛ التاريخانية؛ افتقاد العالم لسحره؛ سيادة المجهولية والغميرية والرداءة والروح العمومية.

يبدو أن فلسفة هايدغر ليست في كثير من جوانبها مجرد انعكاس وصدى للآراء والأفكار المتداولة لدى قطاع واسع من النخبة المثقفة الألمانية المحافظة وفي سياق «الثورة المحافظة»، بل هي أيضاً فلسفة تعمق هذه الأفكار، وتؤسس لها فكرياً، وتقدم لها مورداً فكرياً، وسنناً فلسفياً قوياً. بل ذهب أحد الباحثين إلى القول إن «لنا الحق في اعتبار هايدغر هو الفيلسوف المتميز لـ(الثورة المحافظة) من حيث عدد كبير من الشيمات الثقافية التي تمجد الإبداع، والجدّة، واللامسبوق، والرائع، والواقعية البطولية، وتقذح العمومية، والسوقية، والغوغائية، والانحطاط، وافتقاد القوة الروحية، والثروة، واللاصدق، والتنصل من المسؤولية ومن القرار الشخصي الحازم.. مذكراً بصورة الإنسان العادي الحديث والعديم الميزات والكفاءات (l'homme sans qualités)، الذي صورته R. Musil، الإنسان المتكئف، المطبّع الذي تمجده الكاثوليكية الفاشية والليبرالية المتبدلة، ذلك الإنسان الذي يسكن العمارات المفبركة الجاهزة، ويمتطي سيارة الفولكسفاغن الشعبية، وينام قرير العين في إطار حياة من دون هم»<sup>(١٦)</sup>.

«الثورة المحافظة» هي تيار سياسي وثقافي يميني تطور في ألمانيا ابتداء من سنة ١٩١٨، في إطار معارضة جمهورية فايمار، وتميز برفضه للديمقراطية والبرلمانية والليبرالية والشيوعية.. هذا التيار هو أول امتداد للنزعة الرومانسية التي كانت رد فعل ضد التحديث الذي مهدت له الأنوار والثورة الفرنسية والثورة الصناعية. وقد انبثق عن هذا الاتجاه وتبلور تيار يدين بنوع من الرومانسية السياسية، معارضاً العقلانية

(١٥) انظر: نور الدين الشابي، نيتشه ونقد الحداثة (تونس: دار المعرفة، ٢٠٠٥).

(16) Stenckers, Conception de l'homme, Heidegger et son temps et la RK, pp. 16-24.

والتصنيع والتعمير والليبرالية، ومعارضاً في الوقت نفسه النزعة التقليدانية المفرطة المتمثلة في المسيحية التقليدية، وحالماً بمجتمع عضوي منصهر ويدين بوجهات نظر أو تصورات تشاؤمية وبتصور دوري للتاريخ، وهو ما يجعله امتداداً إلى حد ما للثقافة التشاؤمية (Kulturpessimismus) التي استلهمت الكثير من أفكار نيتشه المناهضة للحدثة.

كانت أفكار «النزعة الثورية المحافظة» قد هيمنت على المناخ السياسي والثقافي في ألمانيا بين سنتي ١٩١٨ و١٩٣٣، وهي أفكار تعكس أصداء هزيمة ١٩١٤ وتسارع التصنيع والتحديث... والمنطق الاستدلالي الضمني للثورة المحافظة (R.K.) في ألمانيا هو: ما يستحق أن يُحتفظ به اليوم لا يمكن أن يتحقق إلا عن طريق قطيعة عنيفة، أي عن طريق ثورة<sup>(١٧)</sup>، وخاصة تجاه عقيدة التقدم التي تدين بها الحدثة، والمتمثلة في التصور الخطي للتاريخ، باعتباره توجهاً كونياً شمولياً ذا معنى، وفي الإيوان بالتجدد والتحسين، حيث يأخذ المستقبل موقع العالم الآخر، وتحل عقيدة السعادة محل عقيدة الخلاص الروحي.

من بين أهم الأسماء التي ساهمت في الثورة المحافظة كتاب وشعراء، مثل توماس مان، وستيفان جورج، وغوتفريد بن، وإرنست سالومون، وإرنست يونغر (الذي كان محط اهتمام خاص من طرف هايدغر حيث عقد ندوة خاصة لدراسة كتابه العامل وحاوّر كتابه الخط الفاصل...)، وفلاسفة مثل أوسوالد شبنغلر صاحب كتاب انحطاط الغرب، ويدرج ضمن هذه الثورة المحافظة هايدغر نفسه الذي كان يمثل، في نظر بعض الباحثين، وجهاً بارزاً للنزعة الثورية المحافظة، من حيث تبنيّه وتعميقه كثيراً من الأحكام النقدية التي كان يعبر عنها تجاه الليبرالية والنزعة الوطنية الاشتراكية مفكرون سياسيون مثل كارل هاوسهاوفر، واقتصاديون مثل سومبارت، وقانونيون مثل كارل شميت، وفنانون وصحافيون.

يرى بعض الدارسين أن على الرغم من أن الثورة المحافظة ساهمت في التمهيد للنزعة بمعارضتها للديمقراطية وللليبرالية ولبعض مظاهر التحديث، فإنها هي نفسها تعرضت لكثير من المضايقات من طرف هذا النظام، لأن بعض أفراد الثورة انتقد الاشتراكية الديمقراطية إما باعتبارها رجعية، وإما كاثوليكية بدائية أو نيتشوية متبدلة.

هناك إذاً سياق واسع من التيارات الفكرية والسياسية المحافظة التي عارضت التحديث والحدثة في أوروبا، ومن أهمها الحركة الرومانسية، والتيار الفلسفي المضاد للحدثة، ويمثله في ألمانيا أوسفالد شبنغلر، وفي فرنسا: Le maître، René Guenon، و J.Maritain، وفي إنكلترا: ت. س. إليوت ود. هـ. لورنس، وفي إيطاليا جوليوس إيفولا (مؤلف كتاب التمرد ضد العالم الحديث الذي تُرجم إلى الألمانية سنة 1935، وقد كتب مقدمة الطبعة الألمانية كوتفريد بين، وهو الكتاب الذي عبر فيه إيفولا عن حلمه بإعادة إقامة مثل القرون الوسطى).

إن الكثير من أفكار هايدغر المناهضة للحدثة (Antimoderniste) هي من جهة صدى ومرآة للتيارات الفكرية والأيدولوجية السارية لدى النخب السياسية والثقافية الأوروبية، وخاصة في ألمانيا، وهي من جهة أخرى تأسيس لهذه الآراء وتعميق لها في ضوء قراءة جديدة نقدية لتحويلات الحدثة الأوروبية في مرحلتها الثانية بعد تدرجها من حدثة تحررية تعدّ بالسلم والسعادة والرخاء إلى حدثة تحكّم وسيطرة وأداتية وحروب...

(١٧) حوار مع A. Benoit تحت عنوان: Entretien sur Celine et l'antimodernité (2007).



يبدو من منظور هايدغر أن الإنسانية سلكت في مسارها المتدرج طريق العلم والعقل والتقنية، وطريق تطوير الذاتية الإنسانية من حيث هي إرادة قوة وإرادة تحكّم في الكائنات والطبيعة والتاريخ. هذا الطريق هو محط انتقادات عميقة من طرف هايدغر، لأن الإنسانية «تلافت» طريقاً آخر موازياً هو طريق الفن والشعر والتأمل والكيونة، وترك الكائنات تتفتق لذاتها وبذاتها من دون علة، وهو طريق رائع وجميل لم يكفّ هايدغر عن تمجيده مع الدعوة إلى «بدء أو إصباح جديد». لكن هل هي مسألة اختيار أم مسألة مصير وقدر بالمعنى الهايدغري ذاته؟ وهل هذا الطريق الآخر هو طريق النجاة والخلاص الدنيوي و«الإنجاز» أم أنه مجرد انتشاء بالوجود وإصغاء لنشيد الكيونة، واستمتاع بترنيمة المقدس؟ وهل كان في إمكان الإنسانية أن تكتشف مجاهل الخلية والذرة والكون لو «سارت» - افتراضاً - في هذا الطريق الرائع والجميل الذي مجده هايدغر؟

هل كان في إمكان العصور الحديثة، وقد تدرجت الميتافيزيقا إلى ذروة نضجها واكتهاها كوعي وكتمثل وإرادة قدرة للذاتية الإنسانية، أن تقدر الواقع على مقاسها، وأن تكتسب هذه القدرة من دون أن تسقط هي ذاتها تحت رحمة التقنية والعالم التقني، أي أن تحقق بواسطة التقنية، السيطرة على العالم وعلى الطبيعة من دون أن تقع هي ذاتها تحت سيطرة التقنية؟

## مراجع إضافية

### ١- العربية

#### كتب

سليمان، جمال. الوجود والوجود: مارتن هايدجر. بيروت: دار التنوير، ٢٠٠٩.  
العظم، صادق جلال. ثلاث محاورات فلسفية: دفاعاً عن المادية والتاريخ. بيروت: دار الفكر الجديد، ١٩٩٠.  
كوكلر، هانس. الشك ونقد المجتمع في فكر مارتين هايدغر. ترجمة حميد لشهب. الدار البيضاء: [د.ن.]، ٢٠١١.

#### دورية

الأزمة الحديثة (الرباط): العددان ٦-٧، ٢٠١٣.

### ٢- الأجنبية

## Books

Boutot, Alain. *Heidegger*. Paris: Presses universitaires de France, 1989. (Que sais-je?; 2480)  
Brito, Emilio. *Heidegger et l'hymne du sacré*. Leuven: University Press; Uitgeverij Peeters; Paris: Peeters France, 1999. (Bibliotheca ephemeridum theologicarum lovaniensium; 141)  
Dulau, Pierre. *Heidegger*. Paris: Ellipses, 2008. (Pas à pas)  
Ferry, Luc et Alain Renaut. *Heidegger et les modernes*. Paris: B. Grasset, 1988. (Figures)  
Gadamer, H.-G. *Les Chemins de Heidegger*. Trad., présentation et notes de Jean Grondin. Paris : J. Vrin, 2002. (Bibliothèque des textes philosophiques)

- Goldmann, Lucien. *Lukács et Heidegger: Fragments posthumes*. Paris: Denoël Gonthier, 1982.
- Heidegger, Martin. *Chemins qui ne mènent nulle part*. trad. de l'allemand par Wolfgang Brokmeier. Nouv. éd. Paris: Gallimard, 1988. (Collection Tel; 100)
- \_\_\_\_\_. *Ecrits politiques, 1933-1966*. Présentation, trad. et notes par François Fédier. Paris: Gallimard, 1995. (Bibliothèque de philosophie)
- \_\_\_\_\_. *Essais et conférences*. trad. de l'allemand par André Préau; préf. par Jean Beaufret. Paris: Gallimard, 1992. (Collection Tel; 52)
- \_\_\_\_\_. *Nietzsche*. Traduit de l'allemand par Pierre Klossowski. 2 vols. Paris: Gallimard, 1971. (Bibliothèque de philosophie; 12, I-II)
- \_\_\_\_\_. *Questions*. 4 vols. Paris: Gallimard, 1990. (collection Tel)
- Renaut, Alain (dir.). *Histoire de la philosophie politique. Tome IV: Les critiques de la modernité politique*. Avec la collab. entre Pierre-Henri Tavoillot et Patrick Savidan. Paris: Calmann-Lévy, 1999.
- \_\_\_\_\_. *L'Ère de l'individu: Contribution à une histoire de la subjectivité*. [Paris]: Gallimard, 1989. (Bibliothèque des idées)
- Jolly, Edouard. *Nihilisme et technique, étude sur Günther Anders*. Paris: EuroPhilosophie, 2010. (Bibliothèque de Philosophie Sociale et Politique)

## Periodical

- Tremblay, Ugo Gilbert. «Günther Anders et Martin Heidegger. Penser la technique au temps de la mort du sujet: Généalogie d'une impuissance pratique.» *Phares: vol. 12, Hiver 2012*.

## Documents

- Clery, Collin. «Heidegger: Une Introduction pour les antimodernistes, Partie 4.» (Counter-Currents Publishing). On the Web: <http://www.counter-currents.com/2012/07/heidegger-une-introduction-pour-les-antimodernistes-partie-4/>
- Darriulat, Jacques. «Heidegger, L'Origine de l'œuvre d'art.» (Cours rédigé pour des étudiants de Licence (troisième année) de Paris IV, 2000).
- Hottois, Gilbert. «La Technoscience: Entre technophobie et technophilie.» On the Web: <[http://www.canal-u.tv/video/universite\\_de\\_tous\\_les\\_savoirs/la\\_technoscience\\_entre\\_technophobie\\_et\\_technophilie.898](http://www.canal-u.tv/video/universite_de_tous_les_savoirs/la_technoscience_entre_technophobie_et_technophilie.898)>.
- Koninck, Salomon. «Heidegger et la metaphysique».
- Le vigan, Pierre. «Benjamin, Heidegger et la naissance de la modernité.» (Euro-Synergies, 16 December 2008). On the Web: <<http://euro-synergies.hautetfort.com/archive/2008/12/16/benjamin-heidegger-et-la-naissance-de-la-modernite.html>>.
- O'Meara, Michael. «Le Primordial et l'éternel: La Tradition dans la pensée de Martin Heidegger et de Julius Evola.» (Counter-Currents Publishing). On the Web: <<http://www.counter-currents.com/2012/04/le-primordial-et-leternel/>>.